الفصل الرابع
أسباب الاختلاف في باب الأسماء والصفات

الكلام في صفات الباري وأسمائه طالت ذُيوله ،و تشعبت أطرافه ، وتناسبت فيه المذاهب ، وتخالفت فيه النحل ، والعالم بالمذاهب والنحل والفرق يعلم أن ذلك يعود لأسباب كثيرة سنأتي في هذا المبحث على ذكر أهمها .

أولا : الإعراض عن الكتاب والسنة وتحكيم العقل في مسائل الشرع

لقد ضلت الأمم من قبلنا في أسماء الله وصفاته كما ضلت في أمور كثيرة ، وأنزل الله وحيه على عبده ورسوله ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ ليخرج الناس من الضلال الذي هم فيه إلى النور ، وجاءهم الوحي بالخبر الصادق والعلم النافع ، وعرَّفهم بربِّهم أحكم تعريف وأقومه ، وفيما جاءهم الوحي به الهداية والكفاية .

ولكن بعض المنتسبين إلى العلم ـ كما يقول الشوكاني ـ لم يقفوا حيث أوقفهم الله، ودخلوا في أبواب لم يأذن الله بدخولها ، فطلبوا علما استأثر الله به دونهم ، وبذلك تفرقوا وتشعبوا شعبا وصاروا أحزابا[1] .

وقد أصّل كثير من الضاربين في بيداء الفكر الإنساني بغير دليل أصولا ظنوها حقا ، دفعوا بها في صدر النصوص من الكتاب والسنة وجعلوها أعلى حكما من النصوص، وفي الحقيقة لم يكن الذي قعدوه أصولا ، وإنما هي شبه وخيالات وقد أفضى هذا المسار ببعض سالكيه إلى نفي صفات الله وأسمائه ، وبعضهم لجأ إلى التأويل ، و فريق وقع في التشبيه ، وفريق هام في آخر أمره على وجهه لا يدري أين

---

(١) التحف في مذاهب السلف للشوكاني . (مجموعة الرسائل المنيرية: ٢/٨٥)

الحق ، وماذا يأخذ وماذا يرفض .

وقد تكلم ابن القيم على هذا النوع من الآراء التي عطلت أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ، ومن ضاهاهم حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة ، وشبههم الداحضه في رد « النصوص الصحيحة الصريحة ، فردوا لأجلها النصوص التي وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها ، وتخطئتهم في معاني النصوص التي لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا ، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب ، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل ، فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده ، وأنكروا مباينته للعالم ، واستواءه على عرشه ، وعلوه على مخلوقاته ، وعموم قدرته على كل شيء .

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي ، والهوى على العقل»[1] .

ثانيا : رد المحكم واتباع المتشابه

المنحرفون عن الصراط السوي يعارضون السنن بظاهر القرآن ، ويستمسكون بالمتشابه في رد المحكم ، فإن لم يجدوا لفظا متشابهاغير المحكم يردونه به ، استخرجوا من المحكم وصفا متشابها وردوه به .

فلهم طريقان في رد السنن :

أحدهما : ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن .

الثاني : جعلهم المحكم متشابها ليعطلوا دلالته .

ومن أمثلة ذلك ردُّ الجهمية النصوص المحكمة غاية الإحكام المبيَّنة بأقصى غاية البيان أن الله موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام والسمع والبصر والوجه واليدين والغضب والرضا والفرح والضحك والرحمة

(١) أعلام الموقعين : ١/ ٧١

والحكمة ، وبالأفعال كالمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا ، ونحو ذلك بالمتشابه من قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] ، ومن قوله : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[2] ، ومن قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾[3] .

ثم استخرجوا من هذه النصوص المحكمة المبينة احتمالات وتحريفات جعلوها من قسم المتشابه .

ومن أمثلة ذلك أيضا ردهم المحكم المعلوم بالضرورة أن الرسل جاؤوا بإثبات عُلو الله على خلقه ، واستوائه على عرشه بالمتشابه من قول الله تعالى : ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾[4] ، ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[5] ونحو ذلك ، ثم تحيَّلوا وتمحَّلوا ، حتى ردوا نصوص العلو والفوقية بالمتشابه[6] .

وطريقة الصحابة والتابعين والأئمة كالشافعي وأحمد ومالك وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق عكس هذه الطريقة ، فإنهم يردون المتشابه إلى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المشابه ، ويبينه لهم ، فتتفق دلالته مع دلالة المحكم ، وتوافق النصوص بعضها بعضا ، ويصدِّق بعضها بعضا ، فإنها كلها من عند الله ، وما كان من عند الله ، فلا اختلاف فيه ، ولا تناقض ، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره[7] .

ثالثا : تأثير الفلسفات والعقائد الضالة الوافدة

افتتح المسلمون كثيرا من بقاع الأرض ، وأصبحوا دولة عظمى لوقت غير

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة مريم : ٦٥

(٣) سورة الإخلاص : ١

(٤) سورة الحديد : ٤

(٥) سورة ق : ١٦

(٦) أعلام الموقعين : ٢/٣٩٦ وقد ذكر ابن القيم امثلة كثيرة لرد المحكم بالمتشابه.

(٧) أعلام الموقعين : ٢/٢٩٦

قصير، وخالط المسلمون أهل الديار التي فتحوها ، وبعض من دخل في الإسلام لم تخلص نفوسهم للإسلام وعقيدة الإسلام ، فجاؤوا ومعهم معتقداتهم أو بعضا منها ، واطلع المسلمون على الكتب المدونة في عقائد اليهودية والنصرانية والفلاسفة على اختلاف طرقهم ، وجرت محاورات ومناقشات بين علماء المسلمين وبين علماء أهل الملل المختلفة ، وكان لذلك آثار طيبة حيث دخل في الإسلام كثير من الناس عن رضى واقتناع ، ولكنَّ بعض المعتقدات الضالة وجدت طريقها إلى نفوس بعض المسلمين وإلى مدوناتهم ، وظن الذين أخذوها أنهم عثروا على كنوز العلم ، فخلطوا هذه المباحث بمباحث العقيدة الإسلامية ، فعكروا صفوها ، وشوهوا وجهها ، ووصل الداء إلى رأس الدولة في بعض الفترات ، فحاول نشر هذه الضلالات بقوة السيف كما فعل المأمون .

ومن البدع الكبار في باب العقائد قول الجهمية في باب أسماء الله وصفاته ، فبهذه المقالة المبتدعة عُطِّل الرب عن صفاته ، وهذه البدعة العظيمة التي كادت أن تنسف العقيدة الإسلامية تمتد أصولها إلى أهل الضلال من المشركين واليهود وغيرهم من الأمم ، فإن من طالع في عقائد الأمم الضالة من قبل وجد هذه الانحرافات مسطورة في كتبهم .

والجعد بن درهم تأثر بالمباحث الفلسفية التي أفرزتها عقول الفلاسفة فإنَّه نشأ في موطن الفلاسفة في بلاد حرَّان من بلاد الشام ، وهذه الديار هي ديار الصابئة وفيها بقاياهم ، وهم أتباع دين نمرود ، وكثير من الذين اتبعوا المنهج الفلسفي استقوا علومهم من أهل هذه الديار .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، فإنَّ أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة ، وأن معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك ـ هو الجعد بن درهم »[1] .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ٢٠

ويقول أيضا : « وكان الجعد بن درهم هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ـ بقايا أهل دين نمرود والكنعانين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ، ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانين المشركين ، وكانت الصابئة إلا قليلا منهم إذ ذلك على الشرك ، وعلماؤهم هم الفلاسفة ، وكثير منهم أو أكثرهم كانوا كفارا أو مشركين ، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل .

ومذهب النفاة من الصابئة في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منهما ، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ، فيكون الجعد قد أخذ مقالته من الصابئة الفلاسفة .

وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حرّان ، وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته ، وأخذها الجهم أيضا فيما ذكره الإمام أحمد وغيره لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والنصارى والمشركين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين »[1] .

وتابع شيخ الإسلام كلامه قائلا : « ثم لما عربت الكتب الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم »[2] .

وقال في موضع آخر : « أصل قول الجهمية مأخوذ عن المشركين والصابئة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلا ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها ، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلا،

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/٢١-٢٢ بشيء من الاختصار ، وانظر : ١٢/ ٣٥٠ من مجموع فتاوي شيخ الإسلام

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/٢٢

وموسى كليما»[1] .

وقد ذكر لنا الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ المناظرة التي جرت بين جهم وبين السمنية ، والتي كانت السبب في حرف مساره وضلاله .

يقول الإمام احمد رحمه الله : « كان مما بلغنا من أمر جهم عدوالله ، أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ ، وكان صاحب خصومات وكلام ، وكان أكثر كلامه في الله تعالى ، فلقي أناسا من المشركين يقال لهم السمنية ، فعرفوا الجهم ، فقالوا له : نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا ، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك .

فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له : ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال الجهم: نعم .

فقالوا له: فهل رأيت إلهك ؟ قال : لا

قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا

قالوا : فشممت له رائحة ؟ قال : لا

قالوا : فوجدت له حِسًّا ؟ قال : لا

قالوا : فوجدت له مِجَسًّا ؟ قال : لا

قالوا : فما يدريك أنه إله ؟قال فتحير الجهم ، فلم يدر من يعبد أربعين يوما .

ثم استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى ، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله ، فإذا أراد أن يحدث أمرا دخل في بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه ، فيأمر بما يشاء ، وينهى عما يشاء ، وهو روح غائبة عن الأبصار .

فاستدرك الجهم مثل هذه الحجة ، فقال للسمني :

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٦٧/١٠

ألست تزعم أن فيك روحا ؟ قال : نعم

فقال : هل رأيت روحك ؟ قال : لا .

قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا .

قال : فوجدت له حِسًّا أو مجسًّا ؟ قال : لا .

قال : فكذلك الله لا يُرَى له وجه ، ولا يُسْمَعُ له صوت ، ولا يُشَمُّ له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون في مكان دون مكان ، ووجد ثلاث آيات من المتشابه قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] ، ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾[2] ، ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾[3] .

فبنى أصله على هذه الآيات ، وتأول القرآن على غير تأويله ، وكذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه رسوله كان كافرا ، وكان من المشبهة ، فأضل بكلامه بشرا كثيرا »[4] .

وحجة هؤلاء السمنية الضالين الذين ضل بضلالهم الجهم وامثاله تتلخص في أن الذي لا يدركه الإنسان بحواسه ليس بموجود ، ولا يجوز الإيمان به وإقراره ، فأجابهم الجهم أنه قد يكون في الوجود ما لا يدركه الإنسان بحواسه كالروح .

وحجة الجهمية باطلة فإن العباد يقرون بأمور كثيرة لم يشاهدوها ولم يروها ، والجهم في رده عليهم أقر بأن الخالق لا يرى ولا يشاهد ولا يسمع ، وبالتالي فإنه لا يتكلم ، ومن ثمّ جعل التوحيد لا يتحقق إلا بنفي صفات الخالق[5] .

---

(١) سورة الشورى : ١١

(٢) سورة الأنعام : ٣

(٣) سورة الأنعام : ١٠٣

(٤) الرد على الزنادقة والجهمية : ص ٢٣ ، ٢٤

(٥) راجع : تاريخ المعتزلة والجهمية للقاسمي : ص ٢٣

وإذا كان الجعد تَشَرَّبَ هذه المقالة من الفلاسفة بحكم نشأته في ديارهم فإنه أخذها أيضا من اليهود بحكم مخالطته لهم .

يقول ابن كثير : « قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته ، وأخذها طالوت عن لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذها لبيد عن يهودي باليمن »[1] .

وقد تكلم كثير من أهل العلم عن أسباب الانحراف الاعتقادي في هذا الباب ونَصُّوا على أن الفلسفات والضلالات القديمة كان لها أثر ظاهر في ذلك الانحراف.

يقول الشهرستاني : « كان واصل بن عطاء يَشْرَعُ في نفي الصفات على قول ظاهر ، وإنما شَرَعَتْ أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة »[2] .

وقال : « كان أبو الهذيل العَلاَّف شيخ المعتزلة الأكبر وافق الفلاسفة في أن الباري عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، وابتدع بدعا في الكلام والإرادة »[3] .

وقال : « غلا إبراهيم بن سيار النظام في أيام المعتصم في تقرير مذهب الفلاسفة وانفرد عن السلف ببدع في القدر والرفض »[4] .

رابعا : الهدم العقائدي المنظم

حاول أعداء الإسلام هدم الإسلام بالقوة فلم يفلحوا ، فاتجهت جهود كثير منهم إلى إفساد عقيدة المسلمين ، وبعض هؤلاء رأَوْا أن هدم الإسلام من داخله أسهل من هدمه من خارجه ، فدخل في الإسلام من يريد هدم عقيدة الإسلام ، وأخذ يبث سمومه في المسلمين ، وأصبحت هذه المفاسد التي نشروها ودَوَّنُوها مباءة خبيثة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ٣٥٠، وانظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ٢٠

(٢) الملل والنحل : ١/ ٤٦

(٣) الملل والنحل : ١/ ٣٠

(٤) الملل والنحل : ١/ ٣١

للملحدين والمنافقين والزنادقة .

وقد كان بعض زعماء الضلال يصرحون بمقصدهم وغايتهم ، وأكثرهم يَظْهَرُ مَقْصِدُهُم في فلتات ألسنتهم ، كما تظهره مبادؤهم الكفرية المتناقضة التي شوهت عقيدة الإسلام ، وأبطلت تعاليم القرآن .

جاء على لسان أبي ميمون القداح قوله : « إني أضيق بدين محمد ، وليس عندي جيش أحارب به ، وليس لديَّ مال ، ولكني في الحيلة طويل الباع بحيث إذا لقيت عونا قلبت دين محمد رأسا على عقب »[1] .

ويقول ابن الراوندي : « إن فصاحة أكثم بن صَيْفي تفوق فصاحة القرآن »[2] .

ويقول أيضا : « إن القرآن غير حكيم ، وإن فيه تناقضا وخطأ وكلاما يستحيل»[3] ، ويقول أيضا : « إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ، وإما أن لا يكون معقولا ، فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه ، فأيُّ حاجة لنا إلى الرسول ؟ وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حد البهمية»[4] .

وقد سلك هؤلاء الضالون في إفساد عقيدة الإسلام طريقتين :

الأول : طريق الْغُلُوِّ والمبالغة . والثاني : طريق التحريف والتأويل .

وأكثر ما تجد الغلو عند أهل التشيع ، فإنهم يبالغون في تعظيم الأئمة حتى رفعوهم إلى مستوى الألوهية ، وخلعوا عليهم صفاتها .

يقول الشهرستاني : « الغلاة اسم علم على أولئك الذين غَلَوْا في حق أئمتهم

---

(١) بيان الأديان لعبد المعالي الحسني : ص ٤١-٤٢

(٢) تاريخ الإلحاد لعبد الرحمن بدوي : ص ١٢١

(٣) الانتصار للخياط : ص ١٢

(٤) تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي : ص ١٤١

حتى أخرجوهم من حدود الخليقة ، وحكموا فيهم بأحكام الألوهية ، فربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفي الغُلُوّ والتقصير، وإنما نشأت شبهاتهم عن مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى.

واول من توجه هذا التوجه قاصدا هدم الإسلام من داخله بإفساد عقيدته ـ فيما علمنا ـ هو عبدالله بن سبأ اليهودي ، يقول البغدادي : « قال المحققون من أهل السنة إن ابن السوداء ـ أي ابن سبأ ـ كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في عليّ وأولاده ، لكي يعتقدوا فيه ما اعتقده النصارى في عيسى عليه السلام »[1] .

وقد ادعى هذاالمأفون ومن سار مساره في عليّ وأبنائه من بعده دَعَاوى رفعتهم إلى مستوى الآلهة ، وأصبغت عليهم صفات الألوهية ، ولحظ ابن حزم هذا الملحظ في الفرس ، فإنهم لما فشلوا في حرب الإسلام بالسيف ، فكروا في وسيلة أخرى لحربه ، فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستشناع ظلم عَلِي ـ رضي الله عنه ـ ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام[2] .

والذي يدُقَق النظر في مقالة الجهمية يعلم أنها تفضي إلى إنكار الخالق ، ولذا رأى علماء أهل السنة أنَّ الذين ابتدعوا هذه المقالة هم من الزنادقة الذين ينكرون الخالق ويجحدونه ، ولكنهم تستروا وراء فلسفات ونظريات ضالة تُوصِلُ إلى مرادهم ، وتخفي قصودهم على خصومهم .

والذين يجحدون صفات الخالق قولهم كقول فرعون ونمرود الذين يجحدون الخالق لأن الذي لا صفات له لا وجود له ، ولاتُمكِن معرفته .

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٣٣٥

(٢) الفصل لابن حزم : ٢/ ١١٥ اللالكائي ١/ ٤٠

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « رؤساء الرافضة والجهمية كانوا زنادقة ، وأول من ابتدع الرفض كان منافقا ، وكذلك التَّجَهُّم أصله زندقة ونفاق ، ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم »[1] .

ويقول أيضا : « المأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوالٍ بتكفير الجهمية المحضة الذين ينكرون الصفات ، وحقيقة قولهم أن الله لا يُرى ، ولا يتكلم ، ولا يباين الخلق ، ولا قدرة له ، ولا علم ولا بصر ولا حياة ، بل القرآن مخلوق ، وأهل الجنّة لا يرونه كما لا يراه أهل النار ، وأمثال هذه المقالات »[2] .

ويقول أيضا :« حقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق ، وتعطيل كلامه ودينه ، كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جلّ جلاله ، ويقول : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [3] ، ويقول لموسى : ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنَّك من المسجونين ﴾ [4] .

ويقول : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [5] ، وكان ينكر أن يكون الله كلَّم موسى ، أويكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع .

فلما كان قول الجهمية المعطلة نفاة الصفات يؤدي إلى قول فرعون كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته وإنكار كلامه ، حتى ظهر بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ، ما ثمَّ رب

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣٥٣

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣/ ٣٥٢

(٣) سورة القصص : ٣٨

(٤) سورة الشعراء : ٢٩

(٥) سورة النازعات: ٢٤

وعبد، وخالق ومخلوق .

ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينتقصونهم ، ويعيبون على نوح وعلى إبراهيم وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ، ولا يَرْضَوْن بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عُبّاد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وإن الله نفسه هو العابد وهو المعبود ، وهو الوجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه ، وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره ، وقد ضل في هذا جماعة لهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين ، والصدر القُونَوي ، تلميذ ابن عربي ، والبلياني والتلمساني ، وهو من حذاقهم علما ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل ، فيشرب الخمر ويأتي المحرمات »[1] .

ويذكر ابن تيمية أنه حدثه من يثق به أنه قرأ « فصوص الحكم » لابن عربي على التلمساني ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فرآه يخالف القرآن ، فقال للتلمساني : هذا الكلام يخالف القرآن . فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول : ثَبَتَ في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

ويذكر أيضا أنه حدثه من كان معه ، ومعه آخر نظير له ، فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق ، فقال له رفيقه : هذا أيضا هو ذات الله ؟

فقال : وهل ثَمَّ شيء خارج عنها ؟ نعم الجميع ذاته .

ويتابع الشيخ كلامه قائلا :« حقيقة قول هؤلاء قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخاف أحدا فينافقه ، فلم يُثْبِتْ الخالق ، وإن كان في الباطن مقرا به ، أما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضُلاّل يحسبون أنهم على حق ، وأن الخالق هو المخلوق ، فكان قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون كان معاندا مظهرا للجحود والعناد ، وهؤلاء إما جهال ضلال ، واما منافقون مبطنون الإلحاد والجحود ، يوافقه ن المسلمين في الظاهر ويذكر الشيخ أن

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ١٣/ ١٨٥

بعض ضَلالهم اعترف أنهم على قول فرعون ونهجه »[1] .

ولقد اتخذ جمع من أهل الضلال التأويل طريقا للإضلال وهدم دين الإسلام ، وهذا هو طريق الباطنية ، يقول محمد بن الحسن الديلمي فيهم : « وُضع مذهب الباطنية في سنة خمسين ومائتين من الهجرة ، وضعه قوم تطابقوا ، وكان في قلوبهم بغض للإسلام ، وبغض للنبي عليه السلام من الفلاسفة والملحدة والمجوس واليهود ليسلخوا الناس عن الإسلام بعد قُوّته ، وبعثوا الدعاة إلى الآفاق والأطراف ليدعوا الناس إلى هذا المذاهب المشؤوم لعلّ الملك يرجع إليهم ، ويَبْطل دين النبي العربي .

وكان آخر دعاتهم ميمون القداح الثنوي ، ولما وضعوا هذا ادَّعوا التشيع ومذهب الإمامية ، وأصولهم في الاعتقاد مثل اعتقاد الفلاسفة ، وظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض .

وجعل ميمون القدَّاح لكلِّ آية من كتاب الله تفسيرا ، ولكل حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأويلا ، وزخرف الأقاويل وضرب الأمثال ، وجمع الأعداد والمقابلات ، وقال : إن جميع المفروضات والمسنونات رموز وإشارات وأمثال ممثلات ، وأن الظواهر كلُّها قشور وبواطنها هو اللب المقصود ، وأمر بالاعتصام بالغائب المفقود ، والإعراض عن الحاضر الموجود ، وجعل أصل دعوته لعلي بالتقديم والإمامة ليستر بجلالة الإسلام وبجاه علي وأولاده عليهم السلام ـ كفره العظيم ، وإفكه القديم ، وإلحاده المبين ، والطعن على جميع الصحابة والتابعين، وكان الملعون يعتقد اليهودية ويظهر الإسلام ، وكان حريصا على هدم شريعة الإسلام لما في اليهود من عداوة النبي عليه السلام .

وللباطنية ألقاب عشرة : « الإسماعلية ، والباطنية ، والقرامطة ، والسبعية ، والبابَلية، والمحمرة ، والتعليميةُ ، والقرمطية ، والخرَّمندينية »[2] .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ١٣/١٨٦

(٢) بيان مذهب الباطنية لمحمد بن الحسن الديلمي :ص ٣ بشيء من التصرف والاختصار ، نشر مكتبة دار ابن قتيبة – الكويت .

وقد ذكر الديلمي كثيرا من تأويلات الباطنية ، فهم يقولون : إن الوحي والملائكة والمعجزات رموز وإشارات وأمثال ممثلات لم يعلمها أهل الظاهر ، فثعبان موسى غلبة موسى فرعون ، وإظلال الغمام أمره عليهم ، ومعنى كون عيسى من غير أب ، أنه لم يأخذ العلم من إمام ، وإنما أخذه من نائب الإمام ، وأولُوا نبع الماء من بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم بتكثير العلم ، وطلوع الشمس من مغربها بخروج الإمام .

ومعنى القيام من القبور المذكور في الكتاب والسنة عندهم قيام قائم الزمان ، وهو خروج إمامهم ، والمعاد عود كل شيء إلى أصله من الطبائع الأربعة ، ومعنى الغسل المأمور به شرعا تجديد العهد عليه ، ومعنى الجماع مكالمة من لا عهد له بالباطن ، والزنا إلقاء العلم في سمع من لم يعاهده ، والاحتلام سبق اللسان لمذهب أهل الباطن، والطهور التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية ، والتيمم الأخذ للعلم المأذون، والصلاة الدعاء لإمامهم ، والزكاة بث العلوم لمن يتزكى بها ويستحقها ، والصوم كتمان العلم عن أهل الظاهر . والكعبة النبي ، والباب علي ،والصفا النبيُّ ، والمروة عليّ ، والميقات إمامهم ، والتلبية ، إجابة الداعي إلى باطلهم ، والطواف بالبيت سبعا هو تطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة ، والنار هي التكاليف بالعبادات، وهي موظفة على الجهال بعلم الباطن ، والجنة علم الباطن .

والطوفان العلم غرق فيه أهل السنة ، والظاهر السفينة حَرّزَه الذي تحصن به المستجيب ، ونار إبراهيم غضب نمرود عليه ، وذبح إسحاق أخذ العهد عليه ، وعصا موسى حجته التي غلب بها عند المناظرة ، وتسبيح الجبال هم رجال شداد منهم ، والجن أصحاب سليمان باطنية ذلك الزمان .

وقد ألف جمع من أهل العلم في بيان مذهب الباطنية وبطلانه ، فمن هذه المؤلفات : فضائح الباطنية للغزالي – نشرته الدار العربية للطباعة والنشر- ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤م

وكتاب القرامطة لابن الجوزي – نشره المكتب الإسلامي – بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨٨م وهو اختصار لكتاب لغزالي .

وإبليس وآدم : أبوبكر وعلي ، ويأجوج ومأجوج أهل الظاهر[1] .

وقد تنبه العلماء إلى الغرض الذي يرمي إليه هؤلاء الباطنية في دعواهم أن للنصوص ظاهرا وباطنا ، وهو التلاعب بهذا الدين كيف شاؤوا .

يقول ابن الجوزي : « وغرضهم فيما وضعوا من ذلك إبطال الشرائع ، لأنهم إذا حَرَّفُوا العقائد عن موجب الظاهر تحكموا بدعوى الباطن على ما يوجب الانسلاخ من الدين »[2] .

وذكر الديلمي أن الباطنية في زعمها « أن الله لا يوصف بنفي ولا إثبات ، أي لا يقال: إنه موجود ولا معدوم ، ولا قادر ولا غير قادر ، ولا عالم ولا غير عالم ، وكذلك في باقي الصفات مرادهم جحد الصانع ، وإنما تستروا بهذه العبارات عند العامة ، حتى لا يُفَهَّمَ مقصودهم ، فإنه لا نفي أبلغ من القول بأنه ليس بشيء ، ولا موجود ولا معدوم»[3] .

وقال الغزالي بعد ذكره معتقدهم في الله الذي ذكره ابن الجوزي والديلمي : «وكأنهم يتطلعون في الجملة لنفي الصانع ، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم ، بل منعوا الناس من تسميته موجودا ، وهو عين النفي مع تغير العبارة ، لكنهم تَحَذَّقُوا ،فسموا هذا النفي تنزيها ، وسموا مناقضَه تشبيها ، حتى تميل القلوب إلى قبوله »[4]

خامسا : الأحاديث الضعيفة والموضوعة :

عملت الأحاديث الباطلة عملها في إفساد عقيدة المسلمين ، فمن هذه الأحاديث المكذوبة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل فقيل له : مِمَّ ربنا ، فقال : « من ماء مرور لا أرض ولا سماء ، خَلَقَ خيلا فأجراها فَعَرِقَت ، فخلق نفسه

---

(١) انظر هذه التأويلات التي تحكي ترهات وأباطيل هذه الطائفة في المصدر السابق : ص ٥ – ١٠

(٢) القرامطة – لابن الجوزي : ص ٣٧ – المكتب الإسلامي بيروت .الطبعة الخامسة : ١٤٠١هـ ١٩٨١م

(٣) بيان مذهب الباطنية للدلمي : ص ٧٢

(٤) فضائح الباطنية : ص ٢٩

من ذلك العَرَقِ »[1] .

ومن الأحاديث الباطلة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربي يوم عرفات بعرفات على جمل أحمر ، عليه إزاران ، وهو يقول : قد سمحت ، قد غفرت إلا المظالم »[2] .

ومنها « رأيت ربي في المنام في أحسن صورة ، شابًا مُوَفَّرا ، رجلا في خَضِرةٍ ، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب »[3] .

ومنها ما ذكره ابن أبي عاصم في كتابه « السنة » « لما قضى الله خلقه استلقى ، ثم وضع إحدى رجليه على الأخرى »[4] .

وقد علق عليه محققه الشيخ ناصر الدين الألباني قائلا :« إسناده ضعيف ، والمتن منكر ، كأنه من وضع اليهود »[5] .

---

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعه و الموضوعة : ١/ ١٣٤

(٢) تنزيه الشريعة : ١/ ١٣٩

(٣) تنزيه الشريعة : ١/ ١٤٥

(٤) السنة لابن أبي عاصم حديث رقم : ٥٦٨

(٥) المصدر السابق .